Dimiliki : golubuk. BIC

الإمام
محمد بن الحسن الشيباني

وأثره في الفقه الإسلامي

دكتور محمد الدسوقي
كلية الشريعة - جامعة قطر

الدوحة
دار الثقافة
الدوحة - قطر
ص.ب ٣٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ملتزم الطبع والنشر والتوزيع
دار الثقافة ـ الدوحة
الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م

دار الثقافة

تليفون { ٤١٣٤٧١ تلكس : ٤٣٥٤
٤١٣١٨٠ برقيا (سالم)
سجل تجاري : ١٦٩٦ ص . ب : ٣٢٣

الدوحة ـ قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ

(١١/ المجادلة)

صدق الله العظيم

مقـدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الهداة والمرسلين سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحابته ومن عمل بمـا جاء به إلى يوم الدين.

وبعد،فإنه إذا كان لبعض الأمم تراث فكري وحضاري تعتز به وتفخر فإن الأمة الإسلامية خليقة بأن تعتز كل الاعتزاز بهذا التراث الفقهي المجيد الذي يعد بحق ثروة علمية فريدة في تاريخ البشرية، فقد تميزت بالموضوعية والإنسانية والاستيعاب والمرونة والنظريات القانونية الدقيقة، ومراعاة المصلحة العامة والخاصة في عدل وإنصاف.

وهذه الثروة الرائعة إذا كانت قد قامت على المصادر التشريعية الأصلية من الكتاب والسنة فإن الفضل فيما اشتملت عليه من آراء ونظريات مختلفة، يرجع إلى جهود عدد غفير من الفقهاء ـ على مدى عدة قرون ـ أخلصوا للعلم إخلاصاً نادراً.

ومن هؤلاء الفقهاء الإمام محمد بن الحسن الشباني الذي كان أول من دون الفقه الإسلامي على منهج علمي لم يسبق به، والذي ترك لنا تراثاً ضخماً يشهد له بالعقلية التشريعية الخصبة والحرص البالغ على طلب العلم أنى تيسر له مهما كابد من مشقات أو أنفق من أموال، فضلاً عن أثره البارز في المذاهب الفقهية المشهورة، وكتابه السير الكبير الذي يضعه في مقدمة الرواد الذين كتبوا في العلاقات الدولية.

والإمام محمد إلى هذا كله فقيه مجتهد، وإمام محدث، لا يقل درجة عن أئمة الفقهاء وأعلام المحدثين في عصره.

وقد لاحظت أن هذا الإمام لم يدرس حتى الآن دراسة شاملة تجلو مكانته وأثره، وتعرض لحياته وكتبه عرضاً وافياً على الرغم من مؤلفاته الكثيرة، ومـا تمتع به من صفات علمية وخلقية قلما تجتمع كلها في شخص واحد. وكل ما كتبه المحدثون عنه لا يعدو

كلمات موجزة في الكتب التي تناولت تاريخ التشريع الإسلامي، ثم رسالة صغيرة للمرحوم الشيخ محمد زاهد الكوثري وهي ليست دراسة علمية، ولكنها جمع لبعض ما كتبه الأقدمون عن الإمام محمد.

لذلك آثرت القيام بدراسة الإمام الشيباني بغية الكشف عن بعض جوانب تراثنا الفقهي، وقياماً بواجب الوفاء نحو فقهائنا الأعلام ومحاولة للاستهداء بما زخرت به حياتهم من مثل وقيم نحن في حاجة إليها في عصرنا الحاضر.

ولأن الإمام محمداً شخصية غنية بآثارها وآرائها وأثرها البارز في الفقه رأيت أن أسلك في هذه الدراسة منهجاً يقوم على تمهيد وخمسة أبواب وخاتمة.

عرضت في التمهيد للحياة الفقهية ـ في إيجاز ـ منذ عصر البعثة إلى نحو منتصف القرن الثاني مع اهتمام خاص بمدرسة الكوفة وأعلام فقهائها منذ دخلها ابن مسعود إلى ظهور محمد في حلقة الإمام أبي حنيفة.

وعقدت الباب الأول للحديث عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية لعصر الإمام محمد، والتزمت فيه بإبراز الاتجاهات العامة دون اهتمام بالجزئيات الفرعية، وقد قسمت هذا الباب ثلاثة فصول: تناول الفصل الأول الحياة السياسية، والفصل الثاني الحياة الاجتماعية والثالث الحياة الفكرية.

وأما الباب الثاني فقد خصصته لدراسة حياة الإمام محمد وآثاره، وهو يقع في أربعة فصول:

في الفصل الأول تحدثت عن نشأة الإمام محمد وأطوار حياته المختلفة، وحاولت استخلاص الرأي الراجح بالنسبة لتاريخ مولده ونسبه ووفاته.

وعرض الفصل الثاني لعلاقة محمد بشيوخه وتلاميذه، ومدى تأثيره في هؤلاء وتأثره بأولئك، وناقشت فيه ما أوردته بعض كتب الطبقات من أخبار حول صلة محمد ببعض هؤلاء جميعاً.

وجاء الفصل الثالث ليبرز أهم جوانب شخصية الإمام محمد الخلقية والعلمية، وقد أثبت فيه أن هذه الشخصية من الشخصيات الفريدة في تراثنا العلمي، وأنها جمعت بين التواضع والاعتزاز بالكرامة كما جمعت بين الإمامة في الفقه والحديث واللغة والأدب.

وعرفت في الفصل الرابع بآثار الإمام محمد، ما وصلنا منها وما لم يصل، وما هو

متفق في نسبته إليه، وما هو مختلف فيه مع تحقيق ذلك والإشارة إلى أن منهج تدوين الفقه الإسلامي لم يتأثر بمصادر أجنبية كما يزعم بعض المستعربين.

وكان الباب الثالث للحديث عن الإمام محمد فقيهاً ومحدثاً ـ وقسمته ثلاثة فصول:

تناولت في الفصل الأول بيان أصول محمد وخصائص فقهه من كتبه مع الاستعانة ببعض كتب الأصول القديمة والحديثة، وحاولت الإشارة إلى بعض أوجه الاتفاق والاختلاف بين محمد وأئمة فقهاء عصره في هذه الخصائص، وتلك الأصول.

وتكلمت في الفصل الثاني عن معرفة محمد بالسنة ورجالها، وأثبت أنه لا يقل درجة في هذا عن أئمة المحدثين في عصره، وأن من كتبه ما يعد من كتب الحديث طوعاً لمنهج تدوينه في القرن الثاني، ثم عرضت لما صدر عن بعض المحدثين من آراء تتهم الإمام محمداً بضعف الحديث، وبينت أنها لا تنهض على أدلة صحيحة، وهي انعكاس لبعض ما كان بين أهل الرأي والمحدثين من خلاف.

أما الفصل الثالث ففيه تحدثت عن منزلة محمد بين فقهاء عصره ومحدثيه وانتهيت في هذا الفصل إلى أن محمداً فقيه مجتهد مستقل وأن وضعه في طبقة المجتهدين في المذهب غير صحيح، وأكدت هذا ببيان أهم أسباب الاختلافات بينه وبين أبي حنيفة وأبي يوسف ومالك والشافعي، ثم أشرت إلى أنه محدث بالمعنى الكامل لهذه الكلمة.

ولأن الإمام الشيباني أول من كتب في شمول وتفصيل عن العلاقات الدولية في الإسلام ـ عقدت الباب الرابع للحديث عن هذه العلاقات في القانون الوضعي والشريعة الغراء وقسمته ثلاثة فصول:

درست في الفصل الأول تاريخ العلاقات الدولية في القانون الوضعي، وأهم أصولها في العصر الحديث.

وفي الفصل الثاني عرضت لأصول هذه العلاقات في الإسلام، كما تحدث عنها الإمام محمد في كتابيه السير الصغير والكبير.

ووازنت في الفصل الثالث بين الشريعة والقانون مع بيان منزلة الإمام محمد بين فقهاء القانون الدولي.

وجاء الباب الخامس والأخير ليعرض لأثر الإمام محمد في الفقه الإسلامي.

وسجلت الخاتمة أهم نتائج البحث كما تضمنت بعض المقترحات.

هذا هو المنهج ـ في إجمال ـ الذي رأيت الأخذ به في دراسة الإمام الشيباني، أرجو أن يكون محققاً للغاية التي تنشدها هذه الدراسة.

وأما مصادري التي ـ اعتمدت عليها واسترشدت بها فهي:

أولاً: مؤلفات الشيباني نفسه، وبعض هذه المؤلفات ما زال خطياً كالزيادات والأصل ويعد هذا الكتاب أهم كتب الشيباني وأكبرها، فبعض نسخه تقع في ستة مجلدات، وقد قرأت نسخة مكتبة قولة التي عرفت بها في الفصل الخاص بآثار محمد، وقد استغرقت قراءتها مني نحو ثلاثة أشهر كنت أتردد فيها يومياً تقريباً على دار الكتب المصرية.

أما كتاب الزيادات فقد اطلعت على شرح خطي له، كتبه قاضيخان وهو يقع في نحو خمسمائة لوحة، وذلك لتعذر قراءة الأصل الخطي للزيادات الموجودة بهذه الدار.

أما الكتب المطبوعة فقرأت بعضها غير مرة كالموطأ والآثار والحجة وشرح السيرين.

ثانياً: ولما كان كتاب المبسوط للإمام السرخسي أكبر وأقدم شرح لكتب ظاهر الرواية ـ وهي كتب الإمام محمد التي رويت عنه بطريق الثقات ـ فقد قرأت هذا الكتاب كله، وهو يقع في ثلاثين جزءاً من القطع الكبير، وكل جزء لا يقل عن مائتي صفحة، كذلك رجعت إلى بعض أمهات كتب الفقه الأخرى كالأم والبدائع.

ثالثاً: كتب الأصول في المذهب الحنفي وغيره مع الاستعانة، بما كتبه المحدثون في الأصول والدراسات الفقهية وبخاصة كتاب أستاذنا الجليل الشيخ علي الخفيف الذي كتبه عن أسباب اختلاف الفقهاء.

رابعاً: كتب التراجم والطبقات والتاريخ، وبعض هذه الكتب لم يطبع بعد.

خامساً: بعض كتب القانون الدولي المعاصر والدراسات الحديثة عن العلاقات والحروب الإسلامية.

سادساً: أبحاث متفرقة منشورة في بعض الدوريات، ومنها بحث للمرحوم الشيخ محمد الفاضل بن عاشور عن كتب ظاهر الرواية، وما نشر في مجلة مدنية الإسلام التركية في العدد الخاص بمهرجان ذكرى وفاة الإمام محمد.

تلك هي المصادر التي رجعت إليها ـ بوجه عام ـ في دراستي، ولا أتحدث هنا عما كابدته من المشقات في الحصول على بعضها أو الانتفاع بها، فذلك أمر يعرفه كل من اتصل بالبحث العلمي، وعانى مشقة العثور على المصادر والمراجع، وكان ما أطمع فيه أن تكون هذه الدراسة قد حققت الغاية منها وجاءت عملاً موفقاً[1]، أسأل الله أن ينفع به وأن يجعله خالصاً لوجهه سبحانه، وأن يهيء لنا من أمرنا رشداً وأن يرزقنا السداد في القول والعمل إنه نعم المولى ونعم النصير.

دكتور محمد الدسوقي
كلية الشريعة ـ جامعة قطر

(١) قدمت هذه الدراسة إلى كلية دار العلوم جامعة القاهرة للحصول على درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، وقد تولت مناقشتها علناً في مساء يوم الأربعاء الموافق ٨/٣/ ١٩٧٢ لجنة مؤلفة من فضيلة الشيخ علي الخفيف مشرفاً، وفضيلة الشيخ علي حسب الله، وفضيلة الشيخ عبد العظيم معاني عضوين، وقد نال صاحبها درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى.

ويقتضيني واجب التلمذة والاعتراف بفضل هؤلاء الأساتذة الذين رحلوا عن دار الفناء إلى دار البقاء، أن أدعو الله تبارك وتعالى أن يسبغ عليهم رحمته، وأن يجزيهم كفاء ما قدموا للعلم وطلابه خير الجزاء.